

تفسير البحر المحيط

@ 26 صديقه خاصة ، قالوا على جهة التلهف والتأسف ، { فَمَا لَنَا مِن شَاْفِرِينَ * }
وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ { . وقال ابن جريج : شافعين من الملائكة وصديق من الناس . ولفظة
الشفيع تقتضي رفعة مكانة عند المشفوع عنده ، ولفظة الصديق تقتضي شدة مساهمة ونصرة ،
وهو فعيل من صدق الود من أبنية المبالغة ونفي الشفعاء . والصديق يحتمل أن يكون نفيًا
لوجودهم إذ ذاك ، وهم موجودون للمؤمنين ، إذ تشفع الملائكة وتتصدق المؤمنون ، كما قال
: الألاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌ إلا المتقين ، أو ذلك على حسب اعتقادهم في معبوداتهم
أنهم شفعاؤهم عند الله ، وأن لهم أصدقاء من الإنس والشياطين ، فقصدا بنفيهم نفي ما يتعلق
بهم من النفع ، لأن ما لا ينفع ، حكمه حكم المعدوم ، فصار المعنى : فما لنا من نفع من
كنا نعتقد أنهم شفعاء وأصدقاء ، وجمع الشفعاء لكثرتهم في العادة . ألا ترى أنه يشفع
فيمن وقع في ورطة من لا يعرفه ، وأفرد الصديق لقلته ، وأريد به الجمع ؟ إذ يقال : هم
صديق ، أي أصدقاء ، كما يقال : هم عدو ، أي أعداء . والظاهر أن لو هنا أشريت معنى
التمني ، وفتكون الجواب ، كأنه قيل : يا ليت لنا كرة فنكون . وقيل : هي الخالصة للدلالة
لما كان سيقع لوقوع غيره ، فيكون قوله : { فَذَكُّونَ } معطوفاً على كرة ، أي فكونا من
المؤمنين ، وجواب لو محذوف ، أي لكان لنا شفعاء وأصدقاء ، أو لخلصنا من العذاب .
والظاهر أن هذه الجمل كلها متعلقة بقول إبراهيم ، أخبر بما أعلمه الله من أحوال يوم
القيامة ، وما يكون فيها من حال قومه . .
وقال ابن عطية : وهذه الآيات من قوله : { يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ } هي
عندي منقطة من كلام إبراهيم عليه السلام ، وهي إخبار من الله عز وجل ، تعلق بصفة ذلك
اليوم الذي وقف إبراهيم عليه السلام عنده في دعائه أن لا يخزي فيه . انتهى . وكان ابن
عطية قد أعرب { يَوْمَ لَا يَنْفَعُ } بدلاً من { يَوْمَ يُدْعَتُونَ } ، وعلى هذا لا
يتأتى هذا الذي ذكره من تفكيك الكلام ، وجعل بعضه من كلام إبراهيم ، وبعضه من كلام الله ،
لأن العامل في البديل على مذهب الجمهور فعل آخر من لفظ الأول ، أو الأول . وعلى كلا
التقديرين ، لا يصح أن يكون من كلام الله ، إذ يصير التقدير : ولا تخزني يوم لا ينفع مال ولا
بنون . والإشارة بقوله { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً } إلى قصة إبراهيم عليه السلام ومحاورته
لقومه . { وَمَا كَانَ أَكْثَرَهُمْ } : أي أكثر قوم إبراهيم . بين تعالى أن أكثر قومه
لم يؤمنوا مع ظهور هذه الدلائل التي استدلت بها إبراهيم عليه السلام ، وفي ذلك مسلاة
للرسول صلى الله عليه وسلم) في تكذيب قومه إياه عليه السلام . .

({ كَذَّبَتْ فَوَمُ زُوحِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ زُوحٌ
أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
* وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ
الْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * قَالُوا أَنْزُلْ لَنَا
وَاتَّبِعْكَ الْإِسْمَ رَدْلُونَ * قَالَ وَمَا عَلَّمِي مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ
حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشَاءُونَ * وَمَا أَنْزَلْنَا بِطَارِدٍ
الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنْزَلْنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ * قَالُوا لَنْ نَبْرَأَ لَكَ
يَا زُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُجْرِمِينَ * قَالَ رَبِّ إِنْ فَوَمِي كَذَّبُونَ *
فَأَفْتَحْ بَيْتِي وَبَيْتَهُمْ فَتَحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
* فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكَ الْمُشْجُونِ * ثُمَّ أَنْزَلْنَا
بَعْدُ الْبَاقِينَ * إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ *
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ *
إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ *
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ
أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَيْتُونَنَا بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً
تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ
بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَاتَّقُوا السَّذْيَ صُلَى

□ عليه وسلم